ISSN : 2353-046
EISSN : 2600-6421

دور دراسات التوازي في إثراء الأدب المقارن في القرن العشرين

الأستاذة: ويزة غربي
جامعة البليدة2

ملخّص

عرف الأدب المقارن تَوسعا في مجاله وإثراء في منهجه، خاصة بعد تراجع الفلسفة الوضعية التي تربط بين الإبداعات الأدبية بعلاقات تفاضلية، تجعل الأدب المتأثر في مرتبة أدنى من الأدب المُؤثِّر، بحيث أصبح دور الباحث في المقارنة الوضعية يقتصر على استنباط أوجه التشابه وأوجه الاختلاف، وقد أصبح هذا التوجّه الذي يُلخّص دور الأدب المقارن في البحث عن الشواهد التاريخية، التي تُثبت العلاقات الفعلية بين الآداب، مرفوضا حتى عند المقارنين الفرنسيين الذين انفتحوا على دراسات التوازي، تجسيدا للنزعة الإنسانية وللبعد العالمي، الذي تميّز بهما الأدب المقارن في القرن العشرين عند المقارنين الفرنسيين المتأخرين، وعند مقارني المدرسة الأمريكية وكذا المدرسة النمطية.

الكلمات المفتاحية: الأدب المقارن، دراسات التوازي، مبدأ التأثير والتأثر، الفلسفة الوضعية، البُعد الإنساني.

ملخّص باللغة الأجنبية

Comparative literature has known expansion in its field and enrichment in its methodology , Especially after the decline of the philosophy of the situation that links literary creations with differential relations, Make influenced literature inferior to influential literature . So that the role of researcher in the comparison situation is limited to the development of similarities and differences, This approach, which summarizes the role of comparative literature in the search for historical evidence, Which proves the actual relations between the arts, is rejected even by the French comparisons, The French, who opened up parallel studies to reflect humanism and the global dimension, Which was characterized by comparative literature in the twentieth century in comparison with French late, When compared to the American school as well as the typical schoo.

المنارة للاستشارات

ISSN : 2353-046
EISSN : 2600-6421

شهد الأدب المقارن تطورا ملحوظا في القرن العشرين، حيث عرف الانطلاقة الحقيقية نحو استثمار بعض البدائل المنهجية كتقنية التوازي، بإخراج الآداب إلى رحابة الثقافات العالمية، والمساهمة في التقريب بين الشعوب، وخدمة الثقافة الإنسانية انطلاقا من طبيعته الإنسانية، خاصة مع انضمام مقارنين آخرين من جنسيات غير أوروبية، عملوا على أن ينفتح الأدب المقارن على ثقافات الشعوب الأخرى، كالعربية والإفريقية والهندية... وطالبوا أن تكون المقارنة تناظرية من خلال التقريب بين الثقافات، وإعادة التوازن إلى العلاقات بين الحضارات، والحد من هيمنة المركزية الأوروبية، فظهرت دراسات التوازي التي تُجسِّد البعد العالمي للأدب المقارن، الذي تخلى عن مبدأ التأثير والتأثر القائم على مبدأ التفاضل بين الآداب، فظهر مبدأ التوازي عند المدارس المقارنية المشهورة وهي: المدرسة الفرنسية والمدرسة الأمريكية وكذا المدرسة النمطية (السلافية) ولكنه تشبّع بمفاهيم كل مدرسة، ولم يخرج عن أطرها الفلسفية والفكرية، فجاء عند المدرسة الفرنسيّة توازيا ثقافيا، وعند المدرسة الأمريكية توازيا نصِّيا، وعند المدرسة النّمطية توازيا تاريخيا.

فكيف ساهمت دراسات التوازي بمختلف تمظهراتها عند المدارس المقارنية، في تطوير الأدب المقارن في القرن العشرين؟

1 – مفهوم التوازي

يُعرَّف التوازي(1) بأنه "التقارب الذي يقيمه المؤلف بين شخصيتين هامتين، من أجل استخراج مزاياهما المتشابهة أو المختلفة" (2) ويبدو أن هذا التعريف البسيط يحدد مفهوم التوازي انطلاقا من العمل الذي قام به بلوتارك في كتابه "حيوات موازية"، بحيث أنّه كان يقيم موازنة بين شخصيات يختارها ويستخرج نقاط التشابه ونقاط الاختلاف بينها، ولكن يرتبط التوازي في الأدب المقارن بالنصوص أكثر مما يرتبط بالأشخاص، كما أنه لا يكتفي بالتشابهات والاختلافات بين المتقابلين، فدراسات التوازي" التي يتحفّظ عليها البعض من منطلق فردية الآداب و تميزها القومي والتاريخي، هي في الحقيقة دراسات على جانب كبير من الأهمية، لأنّها تساعد على التعرف على السِّمات العامة في الظواهر الأدبية، بغض النظر عن اتصال هذه الظواهر ببعضها، كما أنها تساعد أيضا على التعرّف على الخصائص القومية والتاريخية للظواهر الأدبية المتشابهة."(3) وبذلك يكون تعريفه بأنه "نوع من محاولة الجمع بين المتشابهات القائمة على استقراء النصوص."(4) هو الأنسب، لأن التوازي في إطار الأدب المقارن يرتبط بالنصوص أكثر من

المنارة للاستشارات

ارتباطه بالأشخاص. ويطرح التوازي معنى جديد في الأدب المقارن، يتعارض مع مرتكزات المركزية الأوروبية في القرن العشرين، في تعامله مع النصوص الأدبية بالنظر إلى أصولها الإنسانية المشتركة، التي تُشكِّل وحدة رغم تعددها. "فالشيء الأساس هو روح الانفتاح على الآداب والثقافات الأجنبية"(5) ويؤسس هذا التواصل بين الآداب لوضع تتقارب فيه الحضارات والشعوب، فيصبح الحوار، التفاعل بديلا عن الانغلاق و القومية الضيقة، إذ أصبح الأدب المقارن يُعطي اهتماما أكبر، للتفاعل الثقافي والأدبي بين الآداب الإنسانية، بغض النظر عن اختلاف اللّغات والقوميات، مما يرسم حدودا أكثر اتساعًا وانفتاحا للأدب المقارن؛ تجعل من دراسات التأثير تتراجع كثيرا بعد رصد هذا التواصل بين الآداب الإنسانية، التي طالما حاولت القومية الغربية الهيمنة عليها، إذ يدفع هذا التفاعل إلى الخروج على هيمنة النموذج الغربي المتعالي، باتجاه البحث عن مقارنات مع آداب تخرج عن دائرة المركزية الأوروبية، حيث يتم التفاعل المتوازن الذي يضمن هامشا من الندية بين الآداب المقارَنة، فقد تغذى" الأدب المقارن ... مرجعيا من نزعة إنسانية، وتَوَجَّه بفعل هذه النزعة نحو التعامل مع الأدب بوصفه مجال اشتغال المشترك الإنساني"(6) لذلك كان البحث عن المشترك بين الآداب، من أجل بناء نظرية من أهم انشغالات المقارنين، وقد أكَّد ذلك عمل المقارِن الروماني "أدريان مارينو" الذي أطلق على هذه العناصر الجوهرية الكلية والمشتركة بين مختلف الآداب "الثوابت" (les invarriants) واعتبرها" العناصر الأساسية التي تتيح الحديث عن الأدب العالمي، وتسمح ببناء نظرية أدبية قابلة لاحتواء الأدب... الإنساني بصرف النظر عن الحدود الجغرافية"(7) خاصة بعد أن بدأ مبدأ التأثير والتأثر يعرف تراجعا عند بعض المقارنين الفرنسيين.

2- تراجع الفلسفة الوضعية وعودة التوازن إلى العلاقات بين الآداب

تعرّضت المدرسة التاريخية التقليدية "التي استمرت سيطرتها كاتجاه وحيد في الأدب المقارن إلى غاية أواسط القرن العشرين"(8) للتجاوز من طرف أبنائها الذين تمردوا على مبادئها، ومنهم "دانييل هنري باجو"(Daniel-Henri Pageaux)، هو من الرواد الأوائل الذين رفضوا المفهوم البسيط للمقارنة، إذ يطرح سؤالا على المقارنين بقوله: " وأنتم أيها المقارنون، ماذا تقارنون؟" (9) وينعته بالسؤال الساذج، وقد جاء في سياق إنكار اقتصار دراسات المقارنين الفرنسيين على بيان أصالة الأعمال الأدبية فقط، كما يرفض أن تكون المقارنة هي الهدف الوحيد للأدب المقارن، فعليهم تجاوز المهمة التقليدية التي تقتصر

المنارة للاستشارات

على " التقريب بين مُؤَلِفين أو مُؤَلَفين للوصول إلى علاقات فعلية بينهما، بالبحث عن دليل يُجهد نفسه من أجل إثباته"(10) إلى التواصل مع الآخر وتغيير نظرة الاحتقار والدونية إليه، والتعامل معه على أساس من الندية، لقد فرض هذا الوضع الجديد" على المقارنين الفرنسيين استبدال الدراسة المقارنة التي تركز على التشابهات والاختلافات، بالاهتمام بالبعد الأجنبي في النص الأدبي في ثقافة معينة" (11) وهو الموقف نفسه الذي اتخذه "إيف شوفرال" (yves chevrel) الذي يدعو المقارنين" إلى الاهتمام بالآثار القادمة من مكان آخر (ailleurs) والمرتحلة إلى مكان آخر والمتحدثة عن مكان آخر..." (12) ويستبعد أن تكون مجرّد المقارنة بين الأعمال الأدبية هي غاية الأدب المقارن، إذ يعتبره" أفقا ومنظورا (perspective)... لا يتلخّص في المقارنة الأدبية، ولا بالأحرى في ممارسة الموازاة (كورناي/ راسين...) "(13) فليس المقصود منه إجراء مقارنات بين الآداب، واستخراج أوجه التشابه والاختلاف، بقدر ما يُقصد به مساءلة بعض الأعمال الأدبية من ثقافات أخرى، على أساس من التكافؤ مع الثقافة الغربية، مما يُساهم في تجسيد " مفهوم فوق قومي(trans-national) للأدب... ولكنه لا يُشيَّد على دراسة "العلاقات الفعلية"(14) فالانفتاح على الآخر يُسهّل تبادل الأفكار التي تنطلق من فهم الذات أولاً من أجل فهم الآخر، فكلما استطاع الإنسان أن يدرك ذاته كان أكثر قدرة على إدراك وفهم الآخر وبالتالي قبوله، فيتحقق الانسجام والتكامل بين المجتمعات، لأنّ المعرفة الإنسانية تراكمية يستحيل بناؤها بالقدرات الفردية فقط، فلا يمكن للأدب المقارن أن يستمر ويستقر بانغلاقه على نفسه، مادام البعد العالمي يدخل ضمن أهم أهدافه، ليصبح الوعي بالآخر وسيلة لإدراك الذات المنفتحة على حدود الآخر، ويؤكد "إيف شوفرال" على الوظيفة الحقيقية للمقارنين الذين ينعتهم بـ"خارقي الحدود، الذين يُقيمون جسورا بين ضفاف كانت تتجاهل بعضها من قديم،... إن إقامة الجسور يعني المخاطرة بتغيير المَشَاهد التي تعودنا عليها: إن ممارسة المقارنة لا تقوم من دون إعادة النظر في الأفكار المتوارثة والقناعات الضيقة"(15) فلا بد من إعادة بناء المشهد المقارني الفرنسي، بانتهاج موقف أكثر ليونة ومجال أكثر اتساعا، ومد الجّسور إلى آداب كانت مجهولة والتفاعل معها، مما أحدث خلخلة في قناعات المقارنين الفرنسيين، المتمسكين بأفكارهم القديمة الرّاسخة التي رسمت حدودا ضيقة للأدب المقارن.

المنارة للاستشارات

ISSN : 2353-046
EISSN : 2600-6421

3- توسيع دائرة المقارنات بهدف الوصول إلى "علم المقارنة"

في إطار نفس التوجه الرامي إلى فك الحصار المضروب، من طرف المدرسة التاريخية الفرنسية على الأدب المقارن، دعا "فرانسيس كلودون(Francis Claudon) و"كاترين فولتينغ حداد " (Catherine Wolting Hadad) في كتابيهما"الوجيز في الأدب المقارن" إلى الخروج من المقارنة الثنائية بمفهومها البسيط، إلى علم المقارنة الذي نصل إليه، بتوسيع دائرة المقارنة لتشمل عناصر غير متجانسة، " إن هذا الشرط ضروري لكي نرتقي من المقارنة إلى المقارنية(علم المقارنة) لكن...لماذا لا نقابل، لا نقارن بين "بومبي"و"حنبعل"أو بين الفرس والأثينيين؟ ربما يكون في هذا شيئ يشبه معاداة التقاليد المترسخة، أو معاداة ما هو طبيعي...بالإضافة إلى كون مقارنة المقارني يجب ألا تظل حبيسة الأحادية القومية، تُطرح هنا مسألة التمييز بين مقارنية عقيمة ومقارنية خصبة"(16) لقد صنَّف المؤلفان المقارنات والمقابلات الثنائية، في إطار المقارنية "العقيمة" التي كانت تقام بين أدبين قوميين لا غير، كما ينص عليه التقليد الفرنسي المتوارث، في حين يدعوان إلى مقارنية خصبة بتوسيع دائرة المقارنة لتشمل آداباً قومية متعددة، لأن العلاقات الأدبية بطبيعتها لا تقف عند هذه العتبة الثنائية المحدودة، إنها دعوة إلى تجاوز المُؤتلِف، والبحث في المُختلِف(17)غير المتجانس، وهذا شرط ضروري للخروج من دائرة المقارنة بمفهومها الضيق، دون أن تجعل من أيّ أدب قومي مركزاً، إنّها دعوة إلى مقارنة بين الآداب تتجاوز حدود اللغات والثقافات والأقاليم، من خلال تبني قول هنري ريماك زعيم المدرسة الأمريكية "ليس في مقارنة أدب بأدب أو آداب أخرى فحسب، بل في مقارنة الأدب بميادين التعبير الإنسانية الأخرى أيضا "(18) لقد توسّعت دائرة الأدب المقارن لتشمل ظواهر غير أدبية، تتعلق بباقي الفنون والعلوم، مما أعطاه نفسا جديدا أبعده عن خطر الزوال، الذي أصبح يهدد وجوده كعلم مستقل بمنهجه ومجالاته البحثية المحددة، فلقد " حان الوقت أن تتجاوز المقَارَنة ما كان يمكن المُقَارَنَة (comparable) بينهما(راسين وكورناي/ فولتير وروسو) إلى مالا يمكن أن يكون محلا للمقارنة(l incomparable)(بروست وجايمس/ سارتر ودوص باصوص) فكلما اختفت العلاقة الفعلية بينها، يأخذ التوازي مكانه في فعل المقارنة "(19) وهذه دعوة صريحة من "باجو" و"برونال"، إلى المقارنة بين عناصر لا متجانسة قد تنعدم نقاط التقاطع بينهما، في إطار المدرسة الفرنسية التقليدية، خاصة بين الثنائيات التي لا تظهر إمكانية الاتصال والتأثر بينهما ممكنة، وهو موقف فرنسي يقترب من المدرسة الأمريكية، في دعوته إلى عدم الاقتصار على مقارنة

المنارة للاستشارات

ISSN : 2353-046
EISSN : 2600-6421

المتجانس، بل يمكن أن تخرج عن هذا لتشمل اللاّمتجانس كذلك، هنا تأتي دراسات التوازي كتوجه جديد يمكن أن يثري الأدب المقارن منهجيا.

4- بناء نظرية مقارنة ذات بُعد إنساني عالمي

أكّد المقارنون الفرنسيون المتأخرون على ضرورة قراءة النص الأدبي، في علاقته بأدب العالم كله دون حصره في سياقه التاريخي، وقد تجسّد هذا التوجّه على المستوى التطبيقي، في تبني المدرسة الفرنسية، في مرحلة متأخرة من مراحل تطورها "دراسات التوازي"، التي جاءت تجسيدا للنزعة الإنسانية التي تميّز بها الأدب المقارن في القرن العشرين، لقد أصبحت هذه النزعة حاضرة "في مجال الأدب المقارن باعتبارها عاملا من عوامل تسويغ مشروعية قيام الأدب المقارن...فأصبح الخطاب المقارني يتغذى فعلا – على المستوى المرجعي والنظري- من النزعة الإنسانية " (20) وليس المقصود هنا النزعة الإنسانية بمفهومها التاريخي(21) الذي انتشر في القرن السادس عشر والمرتبط بدراسة النصوص الإغريقية واليونانية القديمة، التي تعتبر الإنسان مركزا الكون، ولكن مفهومها في الأدب المقارن يتعلق "بنزعة جديدة بالمقارنة مع النزعة الإنسانية السابقة... بأن غاية الإنسان هي تحقيق عالم إنساني قائم على قيم الحرية والانفتاح والكرامة الإنسانية"(22) وهو المعنى الجديد الذي يتعارض مع مرتكزات المركزية الأوروبية في القرن التاسع عشر، في التعامل مع النصوص الأدبية بالنظر إلى أصولها الإنسانية المشتركة، التي تُشكل وحدة رغم تعدّدها، فأصبح يُعطي اهتماما أكبر للتفاعل الثقافي والأدبي بين الآداب الإنسانية، بغض النظر عن اختلاف اللّغات والقوميات، بما يرسم حدودا أكثر اتساعًا وانفتاحا للأدب المقارن؛ تجعل من دراسات التأثير تتراجع كثيرا بعد رصد هذا التواصل بين الآداب الإنسانية، التي طالما حاولت القومية الغربية الهيمنة عليها، إذ يدفع هذا التفاعل إلى الخروج على هيمنة النموذج الغربي المتعالي، باتجاه البحث عن مقارنات مع آداب تخرج عن دائرة المركزية الأوروبية، حيث يتم التفاعل المتوازن، الذي يضمن هامشا من المساواة بين الآداب المقارَنة، لذلك كان البحث عن الكليات والمشترك بين الآداب، من أجل بناء نظرية من أهم انشغالات المقارنين في هذه الفترة، وقد أكَّد ذلك عمل المقارِن الروماني "أدريان مارينو" الذي أطلق على هذه العناصر الجوهرية الكلية والمشتركة "الثوابت" (les invarriants) واعتبرها" العناصر الأساسية التي تتيح الحديث عن الأدب العالمي، وتسمح ببناء نظرية أدبية قابلة لاحتواء الأدب... الإنساني بصرف النظر عن الحدود الجغرافية"(23) وهي مرحلة من مراحل

المنارة للاستشارات

ISSN : 2353-046
EISSN : 2600-6421

تطور الأدب المقارن الذي اتجه إلى تقنية التوازي، استجابة لمتغيرات الواقع الأدبي والاجتماعي.

5- دراسات التوازي عند المدرسة الفرنسية كبديل منهجي لمبدأ التأثيروالتأثر

يتحدث المقارنون الفرنسيون عن صيغة جديدة، تتصل بالناحية التطبيقية في الأدب المقارن أكثر من الناحية النظرية، يمكن أن تمدَّه بنَفَس جديد في ظل أزمته المنهجية الحادة، يتعلق الأمر بدراسة التوازيات(24) كتقنية جديدة للدراسة المقارنة للنصوص عند المدرسة الفرنسية. لقد ظهرت دعوة المقارنين الفرنسيين أنفسهم إلى تجاوز دراسات التأثير والتأثر، فتوجّه بعض المناصرين لدعوة " روني إيتيامبل" الذين رفضوا تمسك المدرسة الفرنسية بالتاريخ، واستبعادها للنقد "يَنْظرون شَزَرا إلى الدراسات التي تقوم بالكشف عن أوجه التقابل والتشابه"(25) التي ركّزت المدرسة الفرنسية على استنباطها في دراستها المقارنة بين الآداب المختلفة، والتي ما فتئ الأدب المقارن يضع لها التبريرات المقنعة، عبر مساره التاريخي من أجل تفسيرها، فإذا كانت المدرسة الفرنسية التقليدية تُرجعها إلى التأثير والتأثر، من مُنطلق تفاضلي بين الآداب " وهي بذلك تُعد تأكيدا لمركزية الثقافة المانحة، وتماهيا للثقافة الآخذة "(26) فإن توجهات أخرى ظهرت في إطار المدرسة الفرنسية، كانت أقل صرامة منها، أقامته على أسس أكثر مرونة حاولت وضع تفسير لظاهرة التشابه والاختلاف بين الآداب، فجاءت دراسات **التوازي الثقافي** عند المدرسة الفرنسية، فإذا كانت الدراسة وفق المدرسة الفرنسية، تقوم على اكتشاف التشابهات التي تدل على وجود التأثير والتأثر بين الأعمال الأدبية، القائم على التشابه الذي يحمل تبعية اللاّحق للسابق، فإنّ مفهوم التوازي يقوم على مبدأ التقابل بين الآداب، الذي يستدعي النِّدِية والاختلاف.

6- دراسات التوازي وحفظ الخصوصية الثقافية للمجتمعات

إن الأصل في المتوازيين رياضيا أنهما لا يلتقيان إذ "يقتضي التوازي كمفهوم رياضي عدم الالتقاء المطلق، ولكن المكان الوحيد الذي يلتقيان فيه هو الأدب "(27) كما أن التوازي الذي ينفي أن تكون التشابهات مبنية على أساس التأثير، يحفظ الخصوصية الثقافية للمجتمعات، فما دام للنص حمولة ثقافية، وأن بعده الثقافي يستحضر مضمونه الاجتماعي واللغوي" كون النّص مكوّنا ثقافيا متغيّرا من مكونات التفاعل الاجتماعي، فإنّه يُمثّل في حد ذاته ظاهرة ثقافية يمكن أن نستخرج منها بعض الخلاصات التي تهم البنية الثقافية الاجتماعية للمجموعات الثقافية" (28) فكل نص يعبر عن

المنارة للاستشارات

ISSN : 2353-046
EISSN : 2600-6421

مجموعة من البشر لها نظامها الاجتماعي، ثقافتها، وفنونها، عاداتها، وتقاليدها، فالنصوص لم تعد بنية فنية فحسب، بل هي بنية ثقافية كذلك، فعندما تتقابل النصوص باعتبارها حاملة لثقافة معينة، في إطار الدراسات المقارنة وتتقاطع مع بعضها، يظهر المشترك والمتشابه بينها، دون إلغاء للخصوصية، وهذا ما يضمنه التوازي الذي" يَحفظُ قيمةَ المحمول الثقافي في النص الأدبي...بوصفه إجراء يَحفظُ لكل جانب من جانبي المقارنة خصوصيته وعاداته وتاريخه مقابل الآخر"(29) إنه يضع الأعمال الأدبية وفي حالة تكافؤ بينها، كما يسمح لنا" باستنتاج كيف أن الأعمال الشقيقة من حيث الاتجاه والغرض، والمتقاربة من حيث ظروفُ التكوين، يمكنها أن تتفاعل بشكل متقارب من أجل التقريب والجمع بين الأعمال"(30) خاصة بين آداب الدول التي تجمع بينها علاقات متكافئة، مبنية على الصداقة واحترام الآخر.

7- مرجعية التوازي عند المدرسة الفرنسية

يأخذ التوازي مرجعيته عند المدرسة الفرنسية من كتاب "بلوتارك" (plutarke) (31)"حيوات متوازية" (Vies parallèles) "وقد استحق موضوع التوازي أن يُطرح من جديد في الأدب المقارن...فقد استطاع أن يحتل أخيرا مكانه في الدراسات الأكاديمية الفرنسية."(32) بعد تراجع الموقف الرافض له من طرف المقارنين الفرنسيين حيث "ظهرت بعض الأعمال التي... تتأسس على تشابهات ظاهرة بين أعمال أدبية، ظهرت بعيدة عن بعضها، ولم يجد الباحثون ما يبرر هذا التقارب بين المؤلفين، إلا فكرة أن الأصغر قد اطلع على كتاب الآخر الأكبر"(33)هذا في حالة المقابلة بين مُؤَلَّفين، ولكن فكرة الاطلاع هذه لا تبرر التشابهات عندما نكون إزاء مؤلفات متعددة "فليس الأمر كذلك إذا ربطنا بين مؤلفات يكون عددها أكثر من اثنين، تربطها علاقات فعلية متنوعة، أو يمكن أن تنعدم أصلا هذه العلاقات، هنا تأتي التوازيات لتقيم علاقة التشابه ليس على أساس التأثير، ولكن على أساس التناظر"(34) ويعتبر كتاب "بلوتارخ فلوطرخوس"(35) المرجعية الأساس لدراسات التوازي التي تبنّتها الدراسات المقارنية الفرنسية، وهو عبارة عن ترجمات لبعض الشخصيات اليونانية والرومانية، تَجْمع بينها قواسم مشتركة دوّنت هذه السِّيَر" في سلسلة من الكتب، كل كتاب يتضمن سيرة يونانية واحدة يقابلها سيرة رومانية، وتُلحق بها دراسة مقارنة "(36) ويظهر أن التوازي عند بلوتارك يقوم على التشابه أكثر من الاختلاف بين الشخصيات التي يقابل بينها، على مستوى المركز الاجتماعي، السياسي، والعلمي حتى يتحقق التناظر بينها.

المنارة للاستشارات

وعلى أساس ما يضمنه التوازي من نديّة بين الآداب، بنت المدرسة الأمريكية دراستها المقارنة، فليس هناك أدب أفضل من أدب، ولا ثقافة أرقى من ثقافة أخرى، وإنما هناك أدب إنساني ساهمت في تطويره كل الشعوب، التي تربطها علاقات ثقافية متكافئة، تتوارى خلف الظاهرة الأدبية، وهو الأساس الذي بنى عليه الأمريكيون منهجهم المقارن.

8-التوازي عند المدرسة الأمريكية: قراءة التشابه دون شرط التأثير

سعت المدرسة الأمريكية إلى ربط الأدب المقارن بالنقد الأدبي، وانتقلت مقاربتها من سياق النّص إلى نسقه، ودفعها بحثها عن أدبيّة الأدب إلى التركيز على بنيات النصوص الدّاخلية، في مقاربة العمل الأدبي بغرض الوصول إلى بنيته الجمالية، خلافا للمدرسة الفرنسية التي تبحث في المؤثرات الأجنبية، وما تمارسه من تأثيرات على الآداب الأخرى، وتبنّت بدورها تقنية التوازي في دراستها للآداب انطلاقا من توازيها، متخلّية عن مبدأ التعالي الذي مارسته بعض الآداب الغربية من منطلق استعماري، وقد أصبحت هذه النظرة مرفوضة عند بعض المقارنين الغربيين "الذين يدعون إلى رؤية أكثر انفتاحا على العالم"(37) وإلى التفاعل مع آداب بعض القوميات الأخرى كالعربية، والإفريقية، والهندية، وأمريكا الجنوبية، وكذا تبني منهج يعكس هذا التحاور بصورة كبيرة.

استفادت المدرسة الأمريكية من المدرسة الفرنسية في تأسيس توجه خاص بها" يصبح فيها هَمُّ الأدب المقارن الرئيس هو دراسة الظاهرة الأدبية في شموليتها، دون مراعاة للحواجز السياسية واللسانية"(38) فقد اتجهت هذه المدرسة إلى التعامل مع الظاهرة الأدبية داخليا، وكسرت الحدود بينها وبين فنون أخرى كالرسم، والموسيقى، والفلسفة، والنحت... مما دفعها إلى تبني منهجية مختلفة، تتماشى مع المتغيرات المعرفية الجديدة، وصياغة منظور جديد في دراسة النصوص دراسة مقارنة، يختلف عن مبادئ المدرسة التاريخية ومبدأ التأثير، حيث سعى المنظور الأمريكي إلى "التخلص من مبدأ رئيسي من مبادئ المدرسة الفرنسية، بالتحديد مبدأ الدراسة الثنائية"(39) مع شرط اختلاف اللغة، فلم يعد هذان الشرطان ضروريان خاصة في هذه المرحلة التي اتسمت بالانفتاح على ثقافات العالم، ونبذ التعصب للقومية التي تَحدث بسبب النظر إلى الأدب انطلاقا من حدود لغوية وسياسية، بهذا "حوَّلت العلاقة بين عملين أدبيين أو عدة أعمال أو فنون من العلاقة الرأسية والاستعلائية – كما تراها المدرسة الفرنسية – إلى علاقة متوازية أفقية، حيث يتوازى فيها عملان أدبيان أو عدة أعمال أدبية وفنية "(40) كما رفضت التركيز على استنباط أوجه الاختلاف والتشابه بين الآداب الدولية، التي تُشكّل

المنارة للاستشارات

ISSN : 2353-046
EISSN : 2600-6421

جانبا واحدا من جوانب الأدب المقارن، لذلك قامت بتقديم بديل منهجي للدرس المقارن، فلم يعد الهدف من الدراسة المقارنة للأدب مجرّد عقد المقارنات بين الآداب، بل الانفتاح على مستجدات المناهج النقدية واستعانت في ذلك " بالنظرية الأدبية الحديثة في مختلف اتجاهاتها (من بنيوية وما بعد بنيوية وسيميائية وغيرها من الاتجاهات النقدية)"([41]) كما أعلنت كذلك التخلي عن النظرة المتعالية للآخر، وأصبحت تُركز" على مجمل ما حققته البشرية من إنجازات عبر الزمان والمكان " (42) فتكون المدرسة الأمريكية قد تجاوزت المجال الضيق الذي وضعته فيه المدرسة الفرنسية، إلى مجال أوسع إذ ربطته بمختلف حقول المعرفة كالفنون ومختلف العلوم كالسياسة، والاقتصاد، وعلم الاجتماع، مُعلنة عن ميلاد دراسات التوازي؛ المستجيبة للتحولات التي عرفها الأدب في مرحلة ما بعد الحداثة التي اهتمت بالآخر المختلف والمهمّش.

تأخذ التوازيات الأمريكية مرجعياتها "من فكرة التماثل في التطور التاريخي والاجتماعي للبشرية...فأي دراسة للتوازي تقوم على افتراض وجود سمات مشتركة بين الآداب المختلفة التي تتطور اجتماعيا بطريقة متماثلة، بغض النظر عن وجود تأثير متبادل أو اتصال مباشر فيما بينها"(43) فإذا كان لكل أدب سمات خاصة تُميّزه، فإن له تقاطعات مع الآداب الأخرى كونه يتناول الإنسان، وتهدف مثل هذه الدراسات إلى فهم أفضل للنصوص الأدبية، بطريقة أكثر شمولية للخصائص العامة، والسِّمات المشتركة بين آداب الأمم المختلفة الثقافات والحضارات، ولكن يبقى أكبر نقد يوجّه إلى التوازي عند المدرسة الأمريكية وحتى عند المدرسة الفرنسية، هو قصوره إجرائيا؛ إذ تفتقد المدرسة الأمريكية إلى خطوات منهجية، تجعل من تطبيقه في دراسة النصوص دراسة مقارنة أمرا ممكننا، وهو ما سعت إلى تحقيقه المدرسة السلافية عبر "التوازي التاريخي" الذي ينطلق من التشابهات الموجودة بين الشعوب التي لا تربط بينها علاقات التأثير والتأثر، وهذا ما قامت عليه المدرسة المقارنية الاجتماعية لدول أوروبا الشرقية، فبعد انحلال الاتحاد السوفياتي، لم يعد هناك وجود لمدرسة مقارنية روسيّة أو سلافية ، وأصبح النشاط المقارني لدول أوروبا الشرقية كرومانيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر وألمانيا، يتم في شكل مساهمات فردية.

9- المدرسة النمطيّة: التشابهات النمطية وسلطة التوازي التاريخي

تقيم المدرسة النمطية التوازي الذي يُعرف عندها "بالتوازي التاريخي"، بناء على التشابهات الموجودة بين الآداب، على أساس التساوي والنِّدية بين ثقافات العالم، مع

المنارة للاستشارات

ISSN : 2353-046
EISSN : 2600-6421

الاهتمام بالمحمول الثقافي للنصوص الأدبية العالمية، إذ تقوم بدراسة البنيات الإجتماعية والثقافية المحلية، في تقابلها مع مثيلاتها الأجنبية بعيدا عن التصنيف التفاضلي لها، "متجاوزة بحملها الإنساني الأممي الواسع، جغرافية المقارنة التي رسمتها النزعات القومية"(44) وقد فسّرت النظرية الماركسية كمرجعية فكرية للمدرسة النمطيّة، وجود التشابه بين آداب الأمم المختلفة، انطلاقا من تأثر البنية الفوقية والمتمثلة في الأدب، بما يجري في البنية التّحتية وهو المجتمع، لذا فإن دراسة الأدب لا تتم بمعزل عن دراسة المجتمع، وما يحدث فيه من تطورات فنية وفكرية، وقد أدى ذلك إلى إقرار رؤية جديدة أسهمت في تقديم بديل منهجي جديد للأدب المقارن، في ظل الانفتاح على المستجدات التي تعرفها الظاهرة الأدبية، في تفاعلها مع العلوم الإنسانية، وقد بشَّر بذلك "دانييل-هنري باجو" عندما أقرّ في حديثه عن مسعى "جيرومونسكي"، زعيم المدرسة المقارنة لدول أوروبا الشرقية، التي يُطلَق عليها اسم المدرسة النمطية "التيبولوجية" (Typologique)، في الربط بين الأدب المقارن والبيئة الاجتماعية، بعد اعترافه بقصور دراسات التأثير والتأثر الفرنسية فيقول "هكذا كانت مسألة التأثيرات المشهورة هي الأكثر انتقاصا، نتج عن ذلك خصوصية تاريخية...وواقعا اجتماعيا خاصا، استطاع أن يتشكل عبر آلية الاستعارات الخارجية، ويمكن لهذا المنهج التاريخي ـ المقارني أن يدعي تحديد العلاقات بين التطور الأدبي وشرطه الاجتماعي"(45) وقد وصلت العلاقة الوثيقة بين الأدب والمجتمع، إلى تأسيس درس مقارن يولي البعد الاجتماعي للعمل الفني اهتماماً كبيرا، عند "المدرسة النمطية" التي طرحت مشروعا منهجيا مغايرا للمقارنية الفرنسية والأمريكية " يقوم على آلية اجتماعية – تاريخية في فهم الظاهرة الأدبية...بما يحقق نوعًا من الندية في العلاقات الأدبية التي تقوم بين الأمم...وليست ناتجة عن مجرد النقل من-أو التأثر بأدب أمة أخرى." ([46]) لقد انتقدت المدرسة النمطيّة الفلسفة الوضعيّة واعتبرتها فلسفة بورجوازية، وقد كان ذلك من أهم الأسباب التي أَخّرت ظهور الأدب المقارن في دول أوروبا الشرقية، ولكن هذا لم يمنع فيما بعد من ظهور المدرسة السلافية(*)، التي يُفضل البّعض تسميتها بالمدرسة "النّمطية"، لأنّها تسمية تنطلق من طبيعة درسها المقارن، القائم على رصد التشابهات بين الآداب انطلاقا من تشابه أوضاعها الاجتماعية، وهي مدرسة اشتراكية تبنّت المنظور الاجتماعي، وتأخذ مرجعيتها من الفلسفة الماركسية، التي ترى أن تشابه الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في مجتمع ما، يُفرِز نمطا معيّنا من الأدب، فإذا تشابهت هذه الأوضاع في مجتمعين مختلفين أو

المنارة للاستشارات

أكثر، فإن البناء الفوقي"الأدب" سينتج موضوعات متشابهة، وهذا يتيح لنا دراسة هذه الآداب "من باب رؤية كيف أن مجتمعات مختلفة يجمعها الأدب تحت ظروف اجتماعية واقتصادية متشابهة "(47) إذ تأخذ الدّراسة المقارنة لهذا التوجه تشابهات النصوص المتنقّلة من شعب إلى آخر بعين الاعتبار "لأنّها تُعبِّر عن أوضاع اجتماعية مشتركة بين المجتمعات البشرية. وهذه المجتمعات متشابهة رغم ما بينها من فوارق قومية "([48]) فإذا انتقلت الظاهرة الأدبية الأجنبية إلى الأدب الوطني الذي استقبلها، فإنها تأخذ مكانها داخل النسيج الثقافي الجديد؛ حيث يقوم الأدب المستقبل بإعادة إنتاجها طبقًا لشروطه الداخلية، بحسب احتياجاته الثقافية، وهي الظاهرة التي أطلق عليها "فيكتور جيرومونسكي" أبرز ممثلي هذه المدرسة، "**التشابهات النّمطية**"، التي نادى بها في بداية القرن العشرين. لذلك اعتُبِرت المدرسة النمطية من أكثر المدارس ارتباطا بالبعد الاجتماعي والإنساني في الأدب المقارن، من خلال نظرتها الواحدة والموحدة إلى كل آداب العالم، و"هي مدرسة نقدية، مبنية على الدعامتين الفلسفية والعلمية"(49) إذ ترى بأن العلاقة بين الواقع الاجتماعي والإنتاج الأدبي هي علاقة جدلية، أي أن الإنتاج الأدبي يصور الواقع الاجتماعي، السياسي، الاقتصادي، وأن هذا الواقع يؤثر مباشرة في الإنتاج الأدبي، وتبقى هذه العلاقة الجدلية دوما رهينة المرحلة التاريخية، لأن المجتمعات حراكية يعتريها التغيير في مسارها التاريخي، فيصبح الأدب المقارن من منظور هذه المدرسة "علم يدرس تطور الآداب القومية في إطار الأدب العالمي الذي يوحد الشرق والغرب، وهو ينطلق من وحدة السياق التاريخي لتطور آداب الشعوب...ينطلق من مبادئ الأخوة والتعاون بين الشعوب"([50]) وقد عرفت الدراسات النّمطية تطورا كبيرا على يد أشهر زعمائها وهم: "فيكتور جيرومونسكي" و"أدريان مارينو" "ديونيز دوريشين" و"بيير.ف. تسيما.

خاتمة

لقد أسهمت دراسات التوازي في تطوير الأدب المقارن، بفتح وتوسيع أفق ومستقبل الدراسات المقارنية، بما توفّره من تيسير التبادل بين الآداب المختلفة، لأنّها تقوم على تقابل النصوص الأدبية وتناظرها بما يضمن التكافؤ بينها، ويستجيب للمفهوم الإنساني الذي يسعى الأدب المقارن إلى تحقيقه، من خلال خلق مناخ من التعامل النِّدي فيما بينها، خاصة بعد تراجع الفلسفة الوضعية، تراجعا كبيرا في الدراسات المقارنة المعاصرة،

المنارة للاستشارات

ISSN : 2353-046
EISSN : 2600-6421

وقد سجّل الأدب المقارن بذلك إضافة هامة في توسيع مجاله، بإخراجه من حدوده الجغرافية الضيّقة بعيدا عن شرط التأثير والتأثر، كما استجاب للتحولات التي عرفها الأدب في مرحلة ما بعد الحداثة التي اهتمت بالآخر المختلف والمُهمّش، ورغم ذلك يبقى يُسجل قصورا من الناحية الإجرائية، فأكبر نقد وُجّه لدراسات التوازي هو افتقارها لخطوات إجرائية عند مدارس الأدب المقارن الثلاثة، تسمح بإثراء الدراسات المقارنة في جانبها المنهجي، الذي مازال يثير العديد من الإشكالات إلى الآن.

هوامش واحالات الدراسة :

[1] - التوازي مصطلح مأخوذ من الرياضيات الإقليدية، يقوم على معنى التناظر بين خطّين يسيران في تقابل لا يلتقيان، وقد استعار الأدب المقارن هذا المفهوم، فظهرت دراسات التوازي(parallelisme) الذي يؤمن بالتساوي بين آداب الشعوب، ويقيمها على النديّة خلافا لمبدأ التأثير والتأثر، الذي يقيمها على أساس التفاضل والتبعية.

[2] - Pierre Brunel, Daniel-Henri Pageaux, Avant-propos, Revue de la littérature comparée, 2001/2 (n ° 298), Les Parallèles, Klincksieck.

[3] - الغمري مكارم، مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، عالم المعرفة، (د ط)، 1991، ص 17.

[4] - محروس محمود القللي، مفهوم التوازي وآفاقه،المزيفون (بين أندريه جِيد ومحمود تيمور) أنموذجا مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 41 ، العدد3، 2014، ص 904،903.

5- هنري- باجو دانييل، الأدب العام والأدب المقارن، (تر) غسان السيّد، اتحاد الكتاب العرب دمشق، (د.ط)(د.ت)ص 11.

[6] - سعيد أراق بن محمد، الأدب المقارن في ظل تحليل الخطاب النقدي، دار أسامة للنشر والتوزيع الأردن عمان، ط1، 2015، ص 94.

[7] - سعيد أراق بن محمد، المرجع السابق، ص 94.

[8] - درويش أحمد، نظرية الأدب المقارن، تجلياتها في الوطن العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، جمهورية مصر العربية ، 2002، ص 27.

[9] - هنري- باجو دانييل ، المرجع نفسه، ص9.

[10] -Jean-Louis Backès, Le spectre de plutarque, Revue de littérature comparée, http://www.cairn.info:2001/2 (n ° 298), Les Parallèles, Klincksieck ,2001,2.htm.

[11] - Daniel-Henri Pageaux , op, cit

[12] - شوفرال إيف، الأدب المقارن، (تر): عبد القادر بوزيدة، دار التنوير الجزائر، ط1، 2017، ص11.

المنارة للاستشارات

[13] - شوفرال إيف، المرجع السابق، ص13.

[14] - شوفرال إيف، المرجع السابق، ص15.

[15] - شوفرال إيف، المرجع السابق، ص149.

[16] - كلودون فرانسيس، حداد كاترين فولتينغ، الوجيز في الأدب المقارن، (تر) عبد القادر بوزيدة، دار الحكمة الجزائر، (د ط)، 2002، ص17،18.

[17] - إن البحث عن المُختلِف بدل المتماثل والمتشابه، الذي كان الأدب المقارن بتوجهاته المختلفة يسعى إلى تبرير وجوده، أصبح هدفا للدراسات المقارنة في اتصالها بالنقد الثقافي، وهو ما تطرحة المقارنة "أوط هايدمان" في دراستها حول المقارنة الخلافية، أنظر:سعيد أراق بن محمد، الأدب المقارن، في ضوء التحليل النقدي للخطاب، ص90.

[18] - كلودون فرانسيس، حداد كاترين فولتينغ ، المرجع نفسه، ص 19.

[19]- Pierre Brunel, Daniel-Henri Pageaux, Avant-propos, Revue de la littérature comparée, 2001/2 (n ° 298), Les Parallèles, Klincksieck.

[20] - سعيد أراق بن محمد، المرجع نفسه، ص 152.

[21] - سادت هذه النزعة بعودة رجال الأدب إلى نظرية المحاكاة عند اليونان واللّاتين، الذين أعجبوا بما للإنسان من قيمة في نصوص أفلاطون وأرسطو وهوميروس، لما في أدبهم من نزعة إنسانية. وهي تختلف كذلك عن النزعة الإنسانية الرومانسية التي سادت في القرن الثامن عشر.

[22] - سعيد أراق بن محمد، المرجع نفسه، ص 150.

[23] - سعيد أراق بن محمد، المرجع السابق، ص 94.

[24] - التوازيات (paralleles) عنوان عدد خاص من مجلة "الأدب المقارن"(Revue de la littérature comparée) الخاصة بالدراسات المقارنة، أسسها "فردیناند بالدسنجر" (F. Baldensperger) و"بول هازار"(p.hazard) عام 1921، وقد جمعت في عددها رقم 298، 2/2001 وهو عدد خاص"بالتوازيات" أعمال يوم دراسي جرى في 26 جانفي 2001 في فرنسا، تجمَّعت فيه أصوات جديدة لمقارنين مهتمين بالجديد في مجال الدراسات المقارنة، معلنين القطيعة مع الصيغ المقارنية المستهلكة، مقترحين حلولا للمنهجية المقارنية، التي يمكن أن تؤدي لتطوير هذا الاختصاص. انظر:
Revue de littérature comparée 2001/2 (n ° 298), Les Parallèles, http://www.cairn.info/revue-de-litterature-comparee-2001-2.htm.

[25] - نهلة فيصل الأحمد، التفاعل النصّي النظرية والمنهج، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط1، القاهرة، 2010، ص 201.

المنارة للاستشارات

[26]- وائل سيد عبد الرحيم، تلقي البنوية في النقد الغربي، نقد السرديات نموذجا، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ط1، 2010، ص 10،11.

27-Jean Marie Grassin, pour une rethorique du parallele, 2012/2(n 298) http://www.cairn.info/revue-de-litterature-comparee-2001-2-p 225.

[28] - إلرود إنش، جان كوهين، وآخرون، نظرية الأدب في الفرن العشرين، (تر)(تق) محمّد العمري، إفريقيا الشرق، (دط) ،1996، ص76.

[29]- محروس محمود القللي، المرجع نفسه، ص 902.

[30]- محروس محمود القللي، المرجع السابق، ص 907.

[31]- بلوتارك (46 – 120 ق.م) كاتب إغريقي وراوي تراجم، اشتهر بمؤلفه الذي رصد فيه سيرة بعض الزعماء السياسين وقادة الجيوش اليونانيين والرومانيين المعروفين، كتب بلوتارك "حيوات موازية " أو "السيرة" على صورة ثنائيات من الحكام، أحدهما يوناني والآخر روماني، وتكون السيرة الذاتية مصدرًا مهمًا لمعلومات تاريخية. أصبحت سِيَر بلوتارك أساسًا لكثير من القصص والأشعار في القرون التالية.

[32]- Pierre Brunel, Daniel-Henri Pageaux, Op,Cit.

[33]- Jean-Louis Backès, op,cit.

[34]- Jean-Louis Backès ,ibid.

[35]- إن أهم ما جاء به العدد الخاص من مجلة الأدب المقارن (رقم 298/ 2/2012)، هو بعث التوازيات القديمة، التي أسّس لها بلوتارخ، في كتابه الذي ترجمه جرجيس فتح الله، بعنوان مختلف هو"تاريخ أباطرة وفلاسفة الإغريق" بدل "حيوات موازية" كمقابل للعنوان باللغة الأجنبية(Vies parallèles).

[36]- فلوطرخوس بلوطارخ، تاريخ أباطرة وفلاسفة الإغريق، (تر) جرجس عبد الله، المجلّد الأوّل، الدّار العربيّة للموسوعات، بيروت لبنان، ط1، 2010، ص 7.

37- الرويلي ميجان، البازغي سعد، المرجع السّابق، ص 31.

38- عبود عبده، حمود ماجدة، السيّد غسّان، الأدب المقارن، مدخلات نظرية ونصوص ودراسات تطبيقية، منشورات جامعة دمشق، ط1، 2000-2001، ص31.

[39]- مكي الطاهر أحمد، الأدب المقارن، على الرابط: http://www.academia.edu/7074559

40- عبد لله آلبوغبيش، دراسة مقارنة نقدية لقصة من "غادة السمان" وأخرى لـ"بيجن نجدي" من منظور المدرسة الأمريكية، مجلة إضاءات نقدية (فصلية محكمة) ع 17، 2015، ص53.

41- عبد الله آلبوغبيش، المرجع نفسه، ص 53.

42- مكي الطاهر أحمد، المرجع السّابق.

43- مكي الطاهر أحمد، المرجع نفسه.

المنارة للاستشارات

44- الأحمد نهلة فيصل ، المرجع السّابق، ص 201.

45- هنري - باجو دانييل، الأدب العام والمقارن، (تر)غسان السيّد، اتحاد الكتاب العرب، ص 20.

46- صلاح السروى، المنهج الثقافي الاجتماعي في دراسة الأدب المقارن، على الرابط: http://masreiat.com/com

(*)- سُمِّيت هذه المدرسة بالسلافية؛ نسبة إلى اللغات السلافونية التي يتحدث بها معظم منظّريها، في الدرس المقارن لدول أوروبا الشرقية، وأما نعتها بالاشتراكية فبسبب النظام السياسي والاقتصادي القائم في هذه الدول، والذي أثَّر على إنتاجها الأدبي والفني. وأما صفة الماركسيّة فإنها تعود إلى الفلسفة التي تحكم تفكير منظّريها في سائر البلدان الاشتراكية.

47- عبّود عبدو، حمّود ماجدة، السيّد غسَّان، المرجع السابق، ص 38.

48- عبّود عبدو، المرجع السّابق، ص 40.

49- علوش سعيد، مدارس الأدب المقارن دراسة منهجية، المركز الثقافي العربي، ط1، 1987، ص 133.

50- فيكتور مكسيموفيتش جيرمونسكي، علم الأدب المقارن شرق وغرب، (تر، تق): غسّان مرتضى، ط1، 2004، ص50.

المنارة للاستشارات